# الإسلام والمرأة

« النساء شقائق الرجال ».

ـ حديث شريف ـ

obeikandl.com

obeikandl.com

# المرأة بين المساواة والتكامل

لعل موضوع المرأة كان وما يزال من أهم الموضوعات التي طرقها الأدباء والشعراء وعلماء النفس على مر العصور ، فالمرأة على اعتبار أنها تشكل أكثر من نصف المجتمع الإنساني ، ووجودها لا يستطيع أحد أن ينكره ، أو ينكر دورها في هذا المجتمع ، ولهذا يجب أن تتولاها أفكار العلماء والأدباء والمفكرين بالعناية الكاملة للوصول إلى مجتمع إنساني متكامل ، قادر على تحمل مسؤولياته ، ودفع الحضارة بخطوات حثيثة نحو الأمام .

ولا شك أن المرأة إذا ساهمت في بناء الحضارة كان لها دور مهمّ وأساسٌ في هذا البناء ، ودورها هو دور تحمل المسؤولية والمساهمة مساهمة جادة في عملية التطور . . ولهذا كان للمرأة حظ وافر من الاهتمام في الشرائع القديمة ، وكذلك في الشرائع السماوية اليهودية والمسيحية والإسلامية .

وكيف لا . . وهي التي تقوم بوضع اللبنات الأولى لبناء المجتمع ، أوَليست هي التي تربي الأجيال . . وبصلاحها يصلح المجتمع . . وصدق الشاعر حافظ إبراهيم إذ يقول :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

والمرأة هي السند والدعم الأول للرجل في حياته ومعاشه ودفعه

لإنجازات حضارية متتالية . . ولعل القائل لم يُغالِ عندما قال : وراء كل رجل عظيم امرأة .

لذلك أولت آخر الشرائع السماوية المرأة اهتماماً كبيراً ، ورفعتها ونقلتها نقلة نوعية من تهميش دورها ، فأصبحت تساند الرجل ، وتقدم له العون في كل المجالات ، حتى في ساحات القتال لم يكن جيش ليخلو من نسوةٍ يساندن الجنود ، ويزودوهم بالدعم المادي والمعنوي . . وأصبحت المرأة عالمة عاملة متفقهة ، لها من الحقوق ما للرجل ، وعليها من الواجبات ما على الرجل . وباختصار في الإسلام أصبحت المرأة كريمة حقاً .

ومن البديهيات الإسلامية أن المرأة ـ في عرف الإسلام ـ كائن إنساني ، له روح إنسانية ، وهي الوحدة الكاملة في الأصل والمنشأ والمصير ، والمساواة في الكيان البشري ، تترتب عليها كل الحقوق المتصلة مباشرةً بهذا الكيان ، فحرمة الدم والعرض والمال ، والكرامة التي لا يجوز أن تُلْمَزَ مواجهةً أو تُغْتاب ، ولا يجوز أن يُتَجَسَّس عليها ، أو تُقْتَحم الدور ، كلها حقوق مشتركة لا تمييز فيها بين جنس وجنس ، والأوامر والتشريعات فيها عامة للجميع ، كما أن الجزاء في الآخرة واحد للجنسين ، وتحقيق الكيان البشري في الأرض مُتاح للجنسين : الأهلية للملك ، والتصرف فيه ؛ بجميع أنواع التصرف من رهن ، وإجارة ، ووقف ، وبيع ، وشراء ، واستغلال . . . إلخ .

ولكن رغم ذلك لم يسلم الدين الإسلامي من الطعن فيه ، من

ناحية علاجه لمشكلات المرأة . . فتوالت عليه التهم بأنه أدى لانزواء المرأة ، وابتعادها عن المساهمة في بناء المجتمع ، وحرمها من حقوقها ، وجعلها عبدة للرجل ، وخادمة له ولنزواته و ، و . . . إلى ما هنالك من هذه التهم الباطلة التي لا أساس لها من الصحة .

فمن الثابت تاريخياً أن المرأة كانت في جاهليتها تعاني الأمرّين من جراء تسلط الرجل وعجرفته ، فكان له الحق في أن يسلب زوجته حريتها ، فكانت المرأة أسيرة الزوج ، وإذا مات زوجها ورثها أخوه أو قريبه كما تورث المتاع ، فلم يكن ليعترف لها برأي أو بوجود كإنسان . . فأتى الإسلام ورفعها من دركات المتاع والجماد إلى دركات البشر . . وبعد أن كانت شيئاً لا يذكر . . أصبح اسمها مقروناً دائماً مع الرجل . . فالرجل ليس له قيمة من دون المرأة . . والمرأة لا تصلح حياتها من دون الرجل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

ومعنى هذا أن الله عز وجل خلق الرجل والمرأة من أصل واحد ، وسوّى بينهما في الحقوق الأساسية والواجبات الأصلية ، والمرأة لها الحق في إبداء الرأي ، وفي التملك ، وفي العلم المناسب لها ، والذي تحتاج إليه[١] .

---

(١) يسألونك في الدين والحياة ـ د . أحمد الشرباصي ٤/ ٩٧ .

وكانت المرأة في جاهليتها مهضومة الحق ، والرجل يفوقها كثيراً وكان شتان بين المرأة والرجل ، فأتى الإسلام وأقر أنهما سواء ولا فرق بينهما . . وقد بين الله عز وجل علّة هذه المساواة بقوله : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

فالرجل مولود من المرأة ، والمرأة مولودة من الرجل . . فلا فرق بينهما في الصفة البشرية ، ولا تفاضل بينهما إلا في الأعمال ، وما تترتب عليه الأعمال . . وأعطى للمرأة حقها في العمل . . وضمن لها عائدات هذا العمل .

وكان خطاب القرآن للإنسان دائماً جامعاً غير مفرق بين الجنسين ، فهما متكاملان مترافقان .

فهما دائماً معاً . . والعمل مطلوب من كليهما . . ولا فرق في الثواب .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧] .

و«من» هنا للذكر والأنثى دون تمييز . . ولكن رغم هذا ، فقد انطلقت الكثير من الدعوات الخبيثة التي تدعو لتحرير إسار المرأة !! وإطلاقها من عبوديتها !! وكأن الإسلام قد ظلمها وجمدها . . فارتفعت عقيرة الناس المطالبين بتحريرها ومساواتها بالرجل .

ولقد نسي هؤلاء أنه ليس من العدل أن تسوّي بين اثنين من جنسين مختلفين ، لأنه لا يوجد في الحياة جنسان مختلفان ، ولهما صفات الجنس الواحد ، ومؤهلاته وأعماله . . وغايات حياته . . وإنما ميزان العدل الصحيح هو التسوية بين حقوق المرء وواجباته .

والتسوية بين الحقوق والواجبات هي العدل الذي شرّعه وفرضه الدين الإسلامي في القرآن الكريم والسنة المطهرة . وهو موضع للمرأة في موضعها الصحيح ، من الطبيعة ومن المجتمع ومن الحياة الفردية[١] .

ولم يكن جنس النساء مساوياً لجنس الرجال قط في تاريخ أمة من الأمم ؛ التي عاشت فوق هذه الكرة الأرضية على اختلاف البيئات والحضارات . . وقد أقام القرآن الكريم الفارق بين الجنسين على الأساسين اللذين يقيمانه ، ويقيمان كل فارق عادل من نوعه . . والأساسان هذان هما :

أساس الاستعداد الطبيعي ، وأساس التكاليف الاجتماعية . . فالله عز وجل يقول :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ

---

(١) عباس محمود العقاد ـ الفلسفة القرآنية ، ص٥٢ .

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء : ٣٤] (١).

فحق القوامة مستمد من التفوق الطبيعي في استعداد الرجل ، ومستمد كذلك من نهوض الرجل بأعباء المجتمع ، وتكاليف الحياة البيتية . . فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة ، ولو كانت مثله في القدرة العقلية والجسدية ، لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسراً في فترة الحمل والرضاعة .

إذاً طبيعة المرأة لا تجعل منها قادرة على أن تحل محل الرجل مهما كانت الظروف ، طالما أن هنالك فترة فيزيولوجية ستعطلها عن أداء أعمالها . . هذا وجه .

والوجه الآخر . . هو أن الرجل هو الكفيل بتدبير معاشها ، وتوفير الوقت لها في المنزل لتربية الأبناء ، وتيسير أسباب الراحة والطمأنينة البيتية . . وهذه أمور مهمة في سبيل بناء المجتمع السوي .

وكلاهما فارق ضروري تقضي به وظائف الجنسين ، ويقضي به توزيع العمل في البيئة الإنسانية ، كلما تقدم الإنسان ، واتسعت في نفسه عوامل العطف ، وملكات العقل ، وخصائص المزاج ،

---

(١) « قوامون على النساء » : قيامَ الولاة المصلحين على الرعية . « قانتات » : مطيعات لله ، ولأزواجهن . « حافظات للغيب » : صائنات للعرض والمال في غيبة أزواجهن . « نشوزهن » : ترفعهن عن مطاوعتكم .

ويقضي به اختلاف الحقوق والواجبات «طبعاً الاختلاف النسبي» وذلك الاختلاف لم يخلق لإلغاء الفوارق بل للاعتراف بها ، وتوجيهها وجهتها المعقولة ، ولا نحسب أن المجتمع الإنساني ناجٍ من مشكلاته المعقدة في سياسة الأمة ، وسياسة البيت ، وسياسة الحياة الفردية ، حتى يثوب إلى هذا التقسيم الطبيعي الذي لا محيص عنه ، فيعمل الرجال عمل الرجال وتعمل النساء عمل النساء ، وتقام دولة المرأة في البيت ، ودولة الرجال في معترك الحياة[١] .

ولكن هذا لا يعني تجميد المرأة وإبعادها عن المجتمع ، فعندما تتوافر لها الإمكانات والفرص للعمل دون إساءة للمجتمع فلا ضير من ذلك . . بل واجب عليها التعلم والخوض في غمار الحياة . فطلب العلم فريضة على كل مسلم .

ولكن هذا السعي والعمل يجب أن يكون في خدمة المجتمع وليس في سبيل تقويضه وهدمه ، فيجب ألا تهمل واجبها الأساس في البيت لتربية الأبناء وإنشاء جيل قوي . . فالمجتمع الذي يتزاحم فيه النساء والرجال على عمل واحد في المصانع والأسواق لن يكون مجتمعاً صالحاً ، مستقيماً على سواء الفطرة ، مستجمعاً لأسباب الرضا والاستقرار بين بناته وبنيه ، لأنه مجتمع يبذر جهوده تبذير السرف والخطل على غير طائل ، ويختل فيه نظام العمل والسوق ،

---

(١) عباس محمود العقاد ـ الفلسفة القرآنية ، ص٥٤ .

كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت[١] هذا النظام الذي أولاه الإسلام جلَّ اهتمامه . . لأن الأسرة نواة أولى وصغيرة للمجتمع لا يجوز إغفال أهميتها ، وهي تقوم على الحب والعاطفة[٢] . .

إذاً لو تساءلنا : متى يحق للمرأة أن تنزل إلى ساحات العمل ، وتخوض غمار الحياة ؟

فبالتأكيد لا يوجد من يرضى أن يكون عدد كبير من الشباب عاطلين عن العمل لا يجدون ما يسدون به رمقهم . . بينما النساء قد استلموا المكاتب والأعمال الإدارية وغيرها . . ويمضونها في أشغال الصوف والأحاديث الفارغة . . والشباب يتضورون جوعاً ، وبالتالي لن يستطيعوا تكوين أسرٍ لهم ؛ بسبب ضيق الحياة المادية ، وعدم وجود تكاليف الزواج ، فيكون عملُ المرأة في هذه الحالة ضاراً بالرجال .

في مثل هذا المجتمع يجب أن يفسح المجال للشباب ليعملوا فيه . . وتذهب النساء لتعتني بتربية الأولاد ، وتوفير اللبنات القوية لبناء المجتمع .

أما عندما يكون المجتمع قد ضمن العمل لجميع شبابه . . عندها لا مانع أن تعمل النساء مع الرجال ، ولكن أيضاً دون إهمال للمهمة العظيمة . . مهمة إنشاء الأجيال .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سيد قطب ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام ، ص١١٨ .

هذا هو الرأي المعقول والعادل . . ولكنَّ تَسَرُّبَ بعض الأفكار الملتوية حول المرأة ، وحقوقها ، أدى بها إلى الشعور بالنقص ، ولولا مركب النقص لكان فخر للمرأة بمملكة البيت ، وتنشئة المستقبل فيه لا يقل عن فخر الرجل بسياسة الحاضر ، وحسن القيام بحلّ مشكلات المجتمع التي تحتاج إلى الجهد والكفاح . . وهي لو رجعت إلى سليقتها لأحست أن زهوها بالأمومة أغلى لديها ، وألصق بطبعها ، من الزهو بولاية الحكم ، ورئاسة الديوان ، فليس من العواطف الإنسانية شعور يملأ فراغ قلب المرأة ، كما يملؤه الشعور بالتوفيق في الزواج . . والتوفيق في إنماء البنين الصالحين ، والبنات الصالحات . . لهذا كله نقول باستحالة مساواة المرأة مع الرجل . . ولكن ما أيسر تكاملهما . . وما أنفعه للمجتمع !!

## الزواج

إن الزواج كان ولا زال سنة من سنن الله في الخلق والتكوين ، وهي قاعدة عامة مطّردة ، لا يشذ عنها عالم الإنسان ، أوعالم الحيوان ، أو عالم النبات . . ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

والزواج والتزاوج هو الأسلوب الذي اختاره الله عز وجل للتوالد والتكاثر ، واستمرار الحياة ، بعد أن أعدَّ كلا الزوجين وهيأهما ، بحيث يقوم كل منهما بدور إيجابي في تحقيق هذه الغاية . ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ

﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] (١) .

ولم يشأ الله عز وجل أن يجعل الإنسان كغيره من المخلوقات ، فيدع غرائزه تنطلق دون وعي أو تنظيم ، ويترك اتصال الذكر بالأنثى فوضى لا ضابط له ، بل وضع النظام الملائم لسيادته ، والذي من شأنه أن يحفظ شرفه ، ويصون كرامته ، ويجعل الحياة كريمة سعيدة ، فجعل اتصال الرجل بالمرأة اتصالاً كريماً ، مبنياً على رضاهما ، وعلى إيجاب وقبول كمظهرين لهذا الرضا . . فأوجب إعطاء المرأة حقها في اختيار الزوج المناسب لها . . فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها** »(٢) . أي : لا حق للولي في إكراه ابنته على الزواج ، فلها الحرية التامة في اختيار الزوج الذي تجده مناسباً ، وذلك شرط لدوام الوئام والود والانسجام . . فالزواج معاشرة دائمة ، وشركة قائمة بين الرجل والمرأة .

وبذلك حارب الإسلام أولئك الذين يجعلون من الزواج صفقة تجارية مربحة للزوج ، ولوالد الفتاة ، فيتفق الوالد على أن يزوج (أو يبيع) ابنته مقابل مبلغ من المال ، يقبضه الوالد ولا علاقة للفتاة به .

---

(١) « بث منهما » : فَرَّق ونشر منهما بالتناسل . « والأرحام » : واتقوا الأرحام أن تقطعوها . « رقيباً » : مُطَّلِعاً ، أو حافظاً لأعمالكم .

(٢) رواه أحمد (١/ ٢١٩) والبيهقي (٧/ ١١٥) والحميدي في مسنده (٥١٧) .

ولم يوافق الإسلام على جعل الابنة تبعاً للأب وطغيانه ، بل أمر بأن تُستأذن ويؤخذ رأيها في الزوج المناسب لها ، فلا تُكره على شيء . . وبالمقابل طلب الإسلام من المسلمين التراحم فيما بينهم ، وعدم تحميل الشباب ما لا يطيقون ، وتسهيل أمور الزواج لهم ، دون أن يطلبوا لبن العصفورة مهراً لابنتهم . . «**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**»[١] .

وتناس الناس هذا الحديث ، وأصبحنا نرى الشباب يعملون ليلاً ونهاراً من أجل تأمين المهر الباهظ الذي طلبه الأهل لابنتهم . . وآخرون يتسكعون في مراتع الفسق والفجور ، فهذا أسهل عليهم من العمل لنيل شيء جعله أهل البنت أشبه بالمستحيل . . وكم نسمع عن مهور خيالية يطلبها الأهل لابنتهم، وكم نسمع عن شباب عزفوا عن الزواج لعجزهم. . وفتيات لم يستطع أحد التقدم إليهنّ ، وكل هذا مرده إلى الجهلة من الأهل ، ممن يضيقون الخناق على أولادهم .

ونسي هؤلاء الرجل الذي أتى الرسول الكريم ﷺ وما معه من المهر شيء، فقال له الرسول ﷺ : « **كم تحفظ من القرآن؟!** » ثم قال : « **من يزوج ابنته على مهر مقدار كذا من القرآن الكريم** »[٢] . ونسوا قوله ﷺ : «**التمس ولو خاتماً من حديد**»[٣] . أما اليوم فلا نرضى إلا

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٦٧) والحاكم (٢/ ١٦٩) .

(٢) رواه البخاري (٥٠٨٧) ومسلم (١٤٢٥) .

(٣) رواه البخاري (٩/ ١٧٥) وأبو داود (٢١١١) والنسائي (٦/ ١٢٣) والترمذي (١١١٤) وأحمد (٥/ ٣٣٦) .

بالذهب أو الماس.

فتراحموا يا إخوتي فيما بينكم . . ويسّروا أمور الشباب . . لأن الإسلام قد وضع عبر هذا الزواج الغريزة في مأمن من الشذوذ ، وأوصلها سبيلها المأمونة ، وحمى النسل من الضياع . . والمرأة عن أن تكون كلأً مباحاً لكل راتع .

وإذا استمر الأمر كذلك فلن نعجب من تفشي الزنى ، وانتشار الأولاد الذين لا يعرف لهم أب أو أم ، وتدهور العلاقات الاجتماعية . . فالإسلام وضع نواة الأسرة التي تحوطها غريزة الأمومة وترعاها عاطفة الأبوة ، فتنبت نباتاً حسناً ، وتثمر ثمارها اليانعة . . أولاداً كالورد في منظرهم ورائحتهم .

من أجل هذا كله أتى الإسلام وهدم كل ما كان قائماً من أشكال الزواج الفاسد قبله . . فقد كان للزواج عدة أشكال يندى لها الجبين ، منها :

أن الرجل كان يبعث بامرأته إلى رجل آخر لتنام معه حتى يبين له حملها ، وهذا كان رغبة منه بنجابة الولد ، وكان يسمى نكاح الاستبضاع . . ونكاح آخر حيث يجتمع الرهط ـ ما دون العشرة ـ على المرأة فيدخلون عليها ، كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليالٍ ، أرسلت إليهم ، فلا يستطيع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، فتنسب الابن لأحدهم ، ولا يستطيع أن يمتنع

منه الرجل ، فيصبح ابناً شرعياً له حسب الأعراف التي كانت سائدة آنذاك .

وشكل آخر هو البغايا اللواتي كن ينصبن رايات على أبوابهن ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت ووضعت ألحقوا الولد بمن يشبه من الرجال الذين دخلوا عليها . . وهناك العديد أيضاً من هذه الأشكال التي حرمها الإسلام[١] .

ولا أدري ما رأي الشباب المتحرر ، المدعي للثقافة بعودة مثل هذه الزيجات ، لعل تحررهم هذا يصل بهم إلى هذا الحد من إلصاق العار بالمجتمع وبصفاء علاقاته ؟! . . فأتى الإسلام إذاً وهدم نكاح الجاهلية ، وأبقى على النكاح المعروف اليوم ، وما ذلك إلا لحفظ الأُسَر والأنساب ، وعدم ضياع الأولاد .

ولعلَّ جميع الشباب لا يريدون أن تكون حضارتنا من نوع الحضارة التي تسود الغرب اليوم ، من تفشٍ للزنى ، والشيوعية الجنسية التي أدت لانتشار الأمراض الجنسية الكثيرة ، وسيمر ذكر هذا لاحقاً .

ولعلَّ مصيبة هذه الدول التي تدّعي المدنية والحضارة إنما هي في تفككها اجتماعياً ، وانتشار الأخلاق ؛ التي يترفع عالم الحيوان عنها . . ولولا ذلك لكانت آية في التكامل العلمي والاجتماعي الأخلاقي . . ولكن هل من مجيب ؟! .

---

(١) السيد سابق ـ فقه السنة ـ مجلد ثان ـ ص٨ .

# تعدد الزوجات

من الأوهام الشائعة بحكم العادة أن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد ؛ الذي أباح تعدد الزوجات بين الأديان الكتابية .

وهذا وهم واضح لأن الواقع الذي تدل عليه كتب الإسرائيليين والمسيحيين هو أن تعدد الزوجات لم يحرم في كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان عملاً مشروعاً عند أنبياء بني إسرائيل وملوكهم فتزوجوا بأكثر من واحدة .

وروى ـ وسترمارك ـ العالم الحجة في شؤون الزواج على اختلاف النظم الإنسانية أن الكنيسة والدولة معاً كانتا تُقران تعدد الزوجات إلى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع بشكل غير نادر في الحالات التي لا تعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج الأسر الكبيرة .

ويقول وسترمارك : إن كل ما حدث في القرن الأول للمسيحية ؛ أنَّ الآباء كانوا يستحسنون من رجل الدين أن يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك أن يترهب ولا يتزوج البتة . . فكانت الفكرة التي دعت إلى استحسان الزواج الموحد هي فكرة الاكتفاء بأقل الشرور !! فإن لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شراً من امرأتين ، وكانت المرأة على الإطلاق شراً محضاً ، وحبالة من حبالات الشيطان ، بل أخطر هذه الحبالات . . واستكثر أناس من آباء الكنيسة وفقهائها أن تكون لها روح علوية ، فبحثوا في ذلك وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذي لا حياة له بعد فناء

جسده[١] . فكان تعدد الزوجات مباحاً في الأديان الكتابية جميعاً ، ولم يحرم ـ حين حُرم ـ إكباراً للمرأة وتنزيهاً لها عن قبول المشاركة في زوجها ، بل كانت الفكرة الأولى في تحريمه أن المرأة شر لا بد منه ، لذا يفضل أن يكتفى بأقل ما يستطاع . . ولكن قاعدة الإسلام واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ويقول (نيوفلد) صاحب كتاب : « قوانين الزواج عند العبرانيين الأقدمين » : إن التلمود والتوراة معاً قد أباحا تعدد الزوجات على إطلاقه، وإن كان بعض الربانيين ينصحون بالقصد في عدد الزوجات، وإن قوانين البابليين وجيرانهم من الأمم التي اختلط بها بنو إسرائيل ، كانوا جميعاً على مثل هذه الشريعة في اتخاذ الزوجات والإماء .

ومن المعروف أن المسيحيين اتخذوا أكثر من زوجة . يقول (وستر مارك) في كتابه « تاريخ الزواج » : إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر ، وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة .

ثم إن نظام التعدد يراه كثير من الباحثين غير موجود إلا في الأمم المتقدمة، والشعوب المتحضرة ، وهو قليل الانتشار بين البدائيين والمتأخرين .

ثم إن الكثيرين من رجال الدين المسيحي ثاروا على نظام « وحدانية المرأة » فنرى « أن الأكليروس أنفسهم كانوا يتخذون أكثر

---

(١) عباس محمود العقاد ـ الفلسفة القرآنية ـ ص٦٠ .

من زوجة ، شرعية أم غير شرعية ، على الرغم مما تقتضيه قداستهم » .

والآن لندرس تعدد الزوجات في الإسلام دراسة مفصلة . . فيجب أن نلاحظ أن الإسلام على الرغم من أنه لم يحرم تعدد الزوجات بنص قطعي ، إلا أنه بالمقابل لم يبحه إباحة كاملة ، بل قيّده بقيود عديدة .

فإذا كان المسلم مقتدراً ويستطيع أن يتزوج امرأتين أو أكثر . . فلا بأس . . ولكن هناك شرط قاسٍ إن لم يستطع تنفيذه فعليه الاكتفاء بزوجة واحدة . . وهو العدل . . فالعدل بين النساء أمر حرص عليه الإسلام كل الحرص . . لكي لا تهضم حقوق المرأة . . لذلك إن لم يعدل . . أو بالأحرى إن خاف ألا يعدل . . فليكتفِ بزوجة واحدة . ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء : ٣] .

ثم يقول : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء : ١٢٩] .

فنفى قدرة العدل مع الحرص . . أي : إنه حتى الحريص منكم . . سيفلت الأمر من يده ولن يستطيع أن يعدل . . وفي هذا إشارة خفية إلى الاكتفاء بالزواج الأحادي . . وإلى هذا الاتجاه ذهب الكثيرون من مفكري المسلمين ، فالحياة بمتطلباتها الكثيرة تتزايد في اطراد مستمر . . وإنشاء عدة أسر على حساب رجل واحد سيصبح عسيراً ؛ إن لم يكن قد أصبح من الأمور المستحيلة .

وإلى هذا يشير الإمام عبد الحليم محمود فهو يرى أنه : « لا يجوز في عصرنا إيلاء تعدد الزوجات أهمية كبرى ، فمتطلبات الحياة المعاصرة ـ إذا ألقينا جانباً كل الشروط الأخرى ـ تجعل هذا الأمر في غاية الصعوبة وخاصة في المدن الكبرى ، ولن يكون لتعدد الزوجات مكان على المدى البعيد بين المسلمين الذين ينتفعون بثمار الحضارة الحديثة ، وإن كان سيبقى فذلك في الصحراء فقط حيث تضطر شروط الحياة الناس إلى ذلك »[١] . . وفي هذا رؤية منطقية على المدى البعيد . إن لم نكن قد وصلنا إليها حقاً .

ويؤيد محمد عزة دروزة الزواج الأحادي بقوله : « الاكتفاء بزوجة واحدة ضمانة أكيدة ضد الظلم ، والعنف ، والقسوة ، فالإسلام قد قيَّد تعدد الزوجات كماً وكيفاً »[٢] .

وهكذا كانت شريعة القرآن مطابقة لحقيقة الزواج في معانيه الإنسانية ومعانيه النوعية والاجتماعية . . فاستحسنت الاكتفاء بزوجة واحدة ، ولكنها جعلته فضيلة يختارها الزوجان . . وأباحت الشريعة تعدد الزوجات مع اشتراط العدل لمن استطاعه ، وحسبت للدواعي النوعية والاجتماعية التي تبيح تعدد الزوجات في بعض الأحوال ، كل ما ينبغي أن تحسبه شريعة تسري بين أبناء البشر ، في دنياهم هذه التي تطلب المثل الأعلى ، ولا تصل إليه في كل حين .

---

(١) عبد الحليم محمود ـ أوربة والإسلام ـ القاهرة ١٩٧٢ .

(٢) محمد عزة دروزة ـ الدستور القرآني في شؤون الحياة ـ القاهرة ١٩٥٦ .

وإذا أمعنّا النظر في نظام التعدد ؛ لوجدنا ثمة ضرورات تستدعي إقراره ، وتؤكد أهميته ، حفظاً للمصحلة العامة في المجتمع ، ومن هذه الضرورات :

أ ـ الضرورات الاجتماعية : ونعني بها زيادة عدد النساء على عدد الرجال، وحينها يكون التعدد من قبيل الواجبات الاجتماعية لحفظ الأخلاق.

ب ـ الضرورات الشخصية : كعقم الزوجة ، أو تكون الزوجة مريضة مرضاً مزمناً أو معدياً ، بحيث تصعب المعاشرة ، أو في حال كره الرجل للمرأة ، وسفر الزوج المتواصل ، وبقائه فترات طويلة الأمد في كل بلدٍ يحلُّ فيه .

أما معاملة الزوجات فهي في الشريعة القرآنية موافقة لهذا التقدير الصحيح لطبيعة الزواج ، فليس الزوج سيداً للزوجة ، وهي أمةٌ عنده ، ولكنه وليها وله حقوق الولي ، وعليه واجباته . . ومنها حمايتها والإنفاق عليها . . وللمرأة فيما عدا الولاية مثل الذي عليها . ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وفي حالة النشوز يجوز للرجل أن يقوّم خطأ امرأته بالوعظ والنصيحة ، أو بالإعراض والهجر في المضاجع ، وقد يصل الأمر أن يحتاج لضربها ، أو بالتحكيم بالعدل إذا استعصى الوفاق بينهما .

﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

[النساء : ٣٤ ـ ٣٥] (١) .

وليس معنى إباحة الضرب إيجابه مع كل امرأة وفي كل حالة ، وهذه يجب الانتباه إليها يا من تدَّعون التحرر وتهاجمون الإسلام . . فالرسول ﷺ نهى عن عادة الضرب وقبحها فقال : « **أما يستحي أحدكم يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره** »(٢) . وإنما يباح الضرب غير المبرِّح ، بعود السواك ونحوه . لأن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره . . ومن اعترض على إجازته من المتحذلقين بين أبناء العصر الحديث ، فإنما يجري اعتراضه مجرى التهويش في المناورات السياسية ، ولا يجري مجرى المناقشة في مسائل الحياة وأخلاق الناس ، لأن الاعتراض على إباحة الضرب بين العقوبات لا يصح إلا على اعتبار واحد هو : أن الله لم يخلق نساء قط يؤدبن بالضرب ، ولا يجدي معهن في بعض الحالات غيره ، ومن قال ذلك فهو ينسى أن الضرب عقوبة معترف بها في الجيوش والمدارس ، وبين الجنود والتلاميذ ، وهم أحق أن

---

(١) « نشوزهن » : ترفعهن عن مطاوعتكم .

(٢) رواه البخاري (٤٩٤٢ و٥٢٠٤) ومسلم (٤٩) .

ترعى معهم دواعي الكرامة والنخوة إذا جاء الاعتراض من جانب الكرامة والنخوة . . وإن رؤساءهم ليملكون من العقوبات المادية والأدبية ، ومن وسائل الحرمان والمكافأة ، ما ليس يملكه الأزواج في نطاق البيوت المحدودة .

وقد تهزأ النساء بهذه الحذلقة التي تخلط بين مظاهر السهرات في الأندية وبين وقائع العيش ومشكلات البيوت في ناحية الضنك والضرورة ، فإن النساء ليعلمن أن عقوبة الضرب عند المرأة العصبية الناشزة ليست من الهول والغرابة بهذه الصورة المزعومة في بيئات الأندية والسهرات ، فربما كان من أنيقات الأندية والسهرات أنفسهن من يعرف عن هذه الحقيقة ما يجهله المتحذلقون والمتزوّقون في مجامع اللهو والبطالة بزواق الفروسية واللطافة المستعارة ، فيعلمن ويعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء الناشزات لا يكرهنه ولا يسترذلنه ، وليس من الضروري أن يكن من أولئك العصبيات المريضات اللاتي يشتهين الضرب كما يشتهي بعض المرضى ألوان العذاب[١] .

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن كل هذا ينطبق على المرأة الناشز فقط ، وبعد عدة مراحل من الوعظ والتنبيه و ، و . . . ، أما المرأة السوية فلها عند الرجل المودة والرحمة ، وأن تقضى كل حاجاتها المعقولة ، وتنفذ كل رغباتها الشرعية .

---

(١) عباس محمود العقاد ـ الفلسفة القرآنية ـ ص٧٣ .

والضرب والهجر في المضاجع من معجزات القرآن في فهم النشوز . . وهو يتفق مع أحدث ما توصل إليه علم النفس العصري في فهم المسلك المرضي للمرأة .

وكما نعلم يقسم علم النفس هذا المسلك المرضي إلى نوعين :

١ ـ المسلك الخضوعي ويسمى علمياً ـ ماسوشزم Masochism ـ وهو تلك الحالة المرضية التي تلتذ فيها المرأة بأن تضرب وتعذب ، وتكون الطرف الخاضع .

٢ ـ المسلك التحكمي ، وهو ما يسمى علمياً ـ سادزم Sadism ـ وهو تلك الحالة المرضية التي تلتذ فيها المرأة بأن تتحكم وتسيطر وتتجبر وتتسلط وتوقع الأذى بالغير . . ومثل هذه المرأة لا حل لها كما يوضح القرآن الكريم سوى انتزاع شوكتها ، وكسر سلاحها الذي تتحكم به ، وسلاح المرأة أنوثتها ، وذلك بهجرها في المضجع فلا يعود لها سلاح تتحكم به . . أما المرأة الأخرى التي لا تجد لذتها إلا في الخضوع والضرب ، فإن الضرب لها علاج . . ومن هنا كانت كلمة القرآن : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ [النساء : ٣٤] إعجازاً علمياً ، وتلخيصاً في كلمتين لكل ما أتى به علم النفس في مجلدات عن المرأة الناشز وعلاجها[١] .

ومهمة تأديب المرأة من قبل الرجل تقودنا ثانية إلى مشكلة

---

(١) مصطفى محمود ـ حوار مع صديقي الملحد ـ ص٤٧ ـ ٤٨ .

القوامة . . أي قوامة الرجال على النساء . ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] .

وهي حقيقة في كل مكان ، في البلاد الإسلامية وفي البلاد المسيحية وفي البلاد التي لا تعرف إلهاً ولا ديناً .

وقد كان الحكام في موسكو رجالاً من أيام لينين وستالين وخروشوف وبولجانين إلى اليوم ، وفي فرنسا الحكام رجال ، وفي لندن الحكام رجال ، وفي أغلب الأمكنة من الأرض الرجال هم الذين يحكمون ، ويشرعون ويخترعون ، وجميع الأنبياء كانوا رجالاً ، وجميع الفلاسفة كانوا رجالاً . . حتى الملحنين ـ مع أن التلحين خيال لا يحتاج إلى عضلات ـ رجال . . وكما يقول العقاد ساخراً : « حتى صفة الطهي والحياكة والموضة ـ وهي تخصصات نسائية ـ تفوّق فيها الرجال ثم انفردوا بها ، وهي ظواهر لا دخل للشريعة الإسلامية فيها ، فهي ظواهر عامة في كل بقاع الدنيا حيث لا تحكم شريعة إسلامية ولا يحكم قرآن . . إنما هي حقائق . . أن الرجل قوام على المرأة بحكم الطبيعة واللياقة والحاكمية التي خصَّه بها الخالق .

وإذا ظهرت وزيرة أو زعيمة أو حاكمة ، فإنها تكون الطرفة التي تروى أخبارها ، والاستثناء الذي يؤكد القاعدة » .

هذا ما يقوله العقاد . . وهذا يوضح لنا أن الإسلام إنما قام بتسجيل هذه القاعدة . . وبدوره هذا يفسر لنا بعد ذلك لماذا أعطى القرآن الرجل ضعف النصيب في الميراث . . لأنه هو الذي ينفق ، ولأنه هو الذي يعول ولأنه هو الذي يعمل . ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ [النساء : ١٧٦] .

وقد يقول بعضهم : إن المرأة أيضاً تعمل اليوم ، وهذا صحيح ، ولكن معظم هؤلاء النسوة يدخرن رواتبهن لشراء حاجاتهن من ثياب وعدة ماكياج و ، و . . . وبعضهن منهن يشترين به الذهب فهو أضمن لهن ؟!! ورغم أنف من لا يرضى .

إن الإسلام كان بجانب المرأة ، وهو العدل ، والمحبة ، والحنان . . والرسول ﷺ يقول : « **حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة** »[١] .

فذكر النساء مع الطيب والعطر والصلاة هو غاية الإعزاز ، وكان آخر ما قاله الرسول ﷺ في آخر خطبة له قبل وفاته هو التوصية بالنساء : « **استوصوا بالنساء خيراً** »[٢] .

---

(١) رواه النسائي (٣٩٤٠) والحاكم (٢/ ١٦٠) .

(٢) رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١) وأحمد (٥/ ٧٢ـ٧٣) والنسائي في عشرة النساء (٢٨٧) .

وإذا كان الله قد اختار الرجل للعمل خارج البيت ، والمرأة للبيت ، فلأنه عهد للرجل أمانة التعمير والبناء والإنشاء . . بينما عهد للمرأة أمانة أكبر وأعظم هي تنشئة الجيل على الإسلام . . لذلك جعل الإسلام : الجنة تحت أقدام الأمهات .

وإنه لمن الإعظام لشأن المرأة أن تؤمن على هذه الأمانة . . ولم يخطئ نابليون حين قال : « إن المرأة تهز السرير بيد تهز العالم باليد الأخرى » . . فالأبناء الأقوياء الصالحون ؛ لا شك سيبنون العالم ذات يوم ويعمرونه .

وكما أسلفنا لولا الدعايات الغربية والتشككات المغرضة التي تصلنا اليوم . . ولولا مركب النقص لكان للمرأة فخر بمملكة البيت وتنشئة المستقبل فيه ، لا يقل عن فخر الرجل بسياسة الحاضر ، وحسن القيام على مشكلات المجتمع التي تحتاج إلى الجهد والكفاح . . وفي كلٍّ خير .

## التبـرج

لو أتينا إلى معناه اللغوي فهو يعني تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه ، وأصله الخروج من البرج ، وهو القصر ، ثم استعمل في خروج المرأة من الحشمة ، وإظهار مفاتنها ، وإبراز محاسنها .

ومما لا شك فيه أن الملابس والزينة هما مظهران من مظاهر المدنية والحضارة ، والتجرد منهما إنما هو ردة إلى الحيوانية ،

وعودة إلى الحياة البدائية . ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] (١).

والحياة ، وهي تسير سيرها الطبيعي ، لا يمكن أن ترجع إلى الوراء ، إلا إذا حدثت لها نكسة تبدل آراءها ، وتغير أفكارها ، وتجعلها تعود القهقرى ، ناسية أو متناسية مكاسبها الحضارية ورقيها الإنساني .

وإذا كان اتخاذ الملابس لازماً من لوازم الإنسان الراقي ، فإنه بالنسبة للمرأة ألزم ، لأنه هو الحفاظ الذي يحفظ عليها دينها وشرفها وعفافها وحياءها . . وهذه الصفات ألصق بالمرأة وأولى بها من الرجل ، ومن ثم كانت الحشمة أولى بها وأحق . . إن أعز ما تملكه المرأة ، الشرف والحياء والعفاف ، والمحافظة على هذه الفضائل محافظة على إنسانية المرأة في أسمى صورها . . وليس من صالح المرأة ، ولا من صالح الرجل ، أن تتخلى المرأة عن صيانة نفسها وعن الاحتشام . . ولا سيما أن الغريزة الجنسية هي أعنف الغرائز وأشدها على الإطلاق ، وتؤدي إلى الانحراف عن الطريق المستقيم . . ولكن ماذا نقول إزاء الجهل والتقليد الأعمى الذي

---

(١) « أنزلنا عليكم » : أعطيناكم ، ووهبنا لكم . « يواري سوءاتكم » : يستر ويداري عوراتكم. « وريشاً »: لباسَ زينة، أو مالاً. « ولباس التقوى »: الإيمان وثمراته .

سبب الانحراف عن هذا الطريق القويم ، وأتى الاستعمار فأجهز على البقية الباقية من الضمير الإنساني والأخلاق الرفيعة ، فأصبح من المعتاد أن يجد المسلم المرأة المسلمة متبذلة ، عارضة مفاتنها ، ولا تجد غضاضة في قص شعرها ، بل تجد من الضروري وضع الصباغ والمساحيق والتطيب بالطيب ، واختيار الملابس المغرية ، وأصبح لموضات الأزياء مواسم خاصة يعرض فيها كل لون من ألوان الإغراء والإثارة . . ونسيت هذه المرأة التي تطيبت وخرجت أن الرسول ﷺ قد قال : « **أيما امرأة استعطرت فخرجت على قوم حتى يجدوا ريحها فهي زانية** »[١] . . وتلك السافرة ، العارضة لمفاتنها ، نسيت أو تناست قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

وأصبحت المرأة تتخيل حريتها وتحررها في اتباع الموضات الغربية ، ووضع المساحيق ، واستخدام أدوات التجميل ، ولم يتجاوز فهمها للحضارة هذا الحد . . إلا من رحم ربك . . وهذا الاهتمام بالموضات الغربية لم ينل حتى رضا الغربيات ، فقد كتبت صحفية إنجليزية زارت القاهرة مقالاً تحت عنوان : المرأة الغربية غير راضية عن تقليد المرأة الشرقية لها ، فقالت :

« لقد صُدِمْتُ بمجرد نزولي أرض المطار ، فقد كنت أتصور أنني

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤١٤ و٤١٨) والحاكم (٢/ ٣٩٦) .

سأقابل المرأة الشرقية بمعنى الكلمة ، ولا أقصد بهذا المرأة التي ترتدي الحجاب والحبرة ، وإنما المرأة الشرقية المتحضرة التي ترتدي الأزياء العملية التي تتسم بالطابع الشرقي ، وتتصرف بطريقة شرقية ، ولكنني لم أجد هذا ، فالمرأة هناك هي نفسها المرأة التي تجدها عندما تنزل إلى أي مطار أوربي ، فالأزياء هي نفسها بالحرف الواحد ، وتسريحات الشعر هي نفسها ، والماكياج هو نفسه ، حتى طريقة الكلام والمشية ، وفي بعض الأحيان إما الفرنسية أو الإنجليزية !! » .

« وقد صدمني من المرأة الشرقية أنها تصورت أن التمدن والتحضر هو تقليد المرأة الغربية ، ونسيت أنها تستطيع أن تتطور وأن تتقدم كما شاءت مع الاحتفاظ بطابعها الشرقي الجميل » . اهـ .

ولكن مع هذا ما تزال المرأة مصرة على سلوك طريق الانحراف ، ونيل حريتها كما تراها هي من خلال منظار غربي خاص . . فتجد المرأة من مفاخرها ومن مظاهر رقيها أن ترتاد أماكن الفجور والفسق والمراقص والملاهي ، والمسارح والسينما ، والملاعب والأندية والمقاهي ، وتبلغ منتهى هبوطها في المصايف وعلى « البلاج » . . وأصبح من المألوف أن تعقد مسابقات الجمال تبرز فيها المرأة أمام الرجل ، ويوضع تحت الاختبار كل جزء من بدنها ، ويقاس كل عضو من أعضائها على مرأى ومسمع من المتفرجين والمتفرجات ، والعابثين والعابثات ، وللصحف وغيرها من أدوات الإعلام مجال واسع في تشجيع هذه السخافات ، والتغرير بالمرأة للوصول إلى

المستوى الحيواني الرخيص، كما أن لتجار الأزياء دوراً خطيراً في هذا الإسفاف.

لعل بعض المتحذلقين من مثقفي هذه الأيام يجدون مبالغة في هذا الكلام، فمثل هذه المسابقات يعدونها من دلائل التحضر والتمدن والتطور..

عجبي، كيف؟ وعلى أي أساس استندوا في هذا الكلام؟ وما هي الفائدة التي يجنيها المجتمع عندما يستعرض عشرات من فاتنات الأرض، وينتخبون إحداهن ملكة جمال مع وصيفتين لها، وتنهال الأموال عليها، وتقلد التاج والصولجان، والناس من حولها يضجون ويصفقون وكأنهم ملكوا الدنيا؟!.

ولنترك الكلام هنا للصحفية الأمريكية «هيليان ستانبري» الصحفية المتجولة التي تراسل أكثر من ٢٥٠ صحيفة أمريكية، ولها مقال يومي يقرؤه الملايين، ويتناول مشكلة الشباب تحت سن العشرين، تقول:

«إن المجتمع العربي مجتمع كامل وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التي تقيد الفتاة والشاب في حدودِ المعقول، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربي والأمريكي، فعندكم تقاليد موروثة[1] تحتم تقييد المرأة، وتحتم

(١) هذه التقاليد الموروثة إنما هي عندنا الأخلاق التي أتى بها الدين الإسلامي، لا الحياة العادية السائدة.

احترام الأب والأم ، وتحتم أكثر من ذلك ، عدم الإباحية الغربية التي تهدد اليوم المجتمع والأسرة في أوربة وأمريكا . . ولذلك فإن القيود التي يفرضها المجتمع العربي على الفتاة الصغيرة ـ وأقصد ما تحت سن العشرين ـ هذه القيود صالحة ونافعة ، لهذا أنصح أن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم ، وامنعوا الاختلاط ، وقيدوا حرية الفتاة ، وامنعوا الاختلاط ، وقيدوا حرية الفتاة ، بل ارجعوا إلى عصر الحجاب ، فهذا خير لكم من إباحة وانطلاق ومجون أوربة وأمريكا . . امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين ، فقد عانينا في أمريكا الكثير ، لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً معقداً ، مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة ، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين يملؤون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السريّة .

إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار قد جعلت منهم عصابات أحداث وعصابات « جيمس دين » وعصابات للمخدرات والرقيق . . إن الاختلاط والإباحية والحرية في المجتمع الأوربي والأمريكي هدّد الأسر ، وزلزل القيم والأخلاق ، فالفتاة الصغيرة تحت سن العشرين في المجتمع الحديث تخالط الشبان وترقص تشاتشا . . وتشرب الخمر والسجاير ، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية . . . والعجيب في أوربة وأمريكا أن الفتاة تحت سن العشرين تلعب وتلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها ، بل وتتحدى والديها ومدرسيها والمشرفين عليها ، تتحداهم باسم الحرية والاختلاط ، تتحداهم باسم الإباحية

والانطلاق ، تتزوج في دقائق ، وتطلق بعد ساعات !! ولا يكلفها أكثر من إمضاء وعشرين قرشاً وعريس ليلة ، أو لبعض ليال ، وبعدها الطلاق ، وربما الزواج فالطلاق مرة أخرى . . » . اهـ .

وانتهت الكاتبة من مقالها الواضح ، والذي حوى كلاماً ثميناً وصريحاً لا داعي لتفصيله وشرحه ، فهو يعد إحدى الشهادات الخطيرة التي تعيشها الأسر الغربية ، والحالة التي صارت إليها . . وهذه الحالة هي الضياع والتشتت ، ونحن في طريقنا إليها إن لم ننتبه في الوقت الحالي ، ومنعنا هذا الفسق والفجور الذي تفشى لدينا في كل مكان . . لأن هذا الانحراف والتقليد الأعمى قد ولّد عندنا كثرة الفسق ، وانتشار الزنى ، وانهدام كيان الأسرة ، وأهملت الواجبات الدينية ، وتركت العناية بالأطفال ، واشتدت أزمة الزواج ، وأصبح الحرام أيسر حصولاً من الحلال ، وبالجملة فقد أدى هذا التهتك إلى انحلال الأخلاق وتدمير الآداب التي اصطلح عليها الناس في جميع المذاهب والأديان .

ومن غرائب السلوك البشري : أن طائفة من الناس هم الذين يأسرون أنفسهم في قيود اللهاث وراء اللذة الجنسية ، فهم يُوْجِدُون المشكلة ، ويضعون حولها هالات من التقديس والدعاية والتزيين ، ويُقْنِعُون الآخرين بأن الجنس مشكلة ، وأن الحياة وسيلة لإرضاء الذات ، وفتح الأبواب مشرعةً لتحصيل وسائل الرغبة ، وتهييج الغرائز .

ويا للأسف أن المرأة هي الفريسة والمصيدة ، فسرعان ما تشارك

أولئك الموتورين في صراعهم مع الفضيلة ، فإذا بها تتبرَّج ، وتكشف عن محاسنها ، وتُقلِّد الغرب في الأزياء ، والتسريحات ، وطريقة الكلام ، والتلفظ ببعض الألفاظ الأجنبية ، مع كثيرٍ من التكسُّر ، وهنا حدِّثْ بلا حرج عن أولئك الهلكى في شَرَك الفتنة ، وشِباك المرأة الماجنة .

وقد بلغ هذا الانحراف حداً لم يكن يخطر على بال مسلم ، وتفنن دعاة التحلل والتفسخ ، واتخذوا أساليب للتجميل واستعمال الزينة ، ووضعوا لها منهجاً ، وأعدوا معاهداً لتدريس هذه الأساليب ، ولم يقتصر هذا الفساد على ناحية دون ناحية ، بل تجاوزها إلى دور العلم ومعاهد التربية وكليات الجامعة ، ولم تراع حرمتها ، ودورها العلمي ، وكان المفروض أن تُصان هذه الدور من الهبوط ؛ حتى تبقى لها حرمتها وكيانها المقدس .

وقد ظهرت مقالة لكاتبة مصرية بعنوان : « الفتاة الجامعية لا تفرق بين حرم الجامعة وصالة عرض الأزياء » قالت فيها :

« إن الطالبة الجامعية عندنا لا تعرف كيف تختار الزي والماكياج المناسبين لها كطالبة ، ولا تبذل أي مجهود في هذا السبيل ، إنها لا تفرق كثيراً بين حرم الجامعة وصالة عرض الأزياء ، أو الكرنفال ، فهي تذهب إلى الجامعة وقد تنسى كتبها ودفاترها ، ولكن لا تنسى أبداً الحَلَق ، والعقد ، والسوار ، والبروش الذي تحلّي به أذنيها وصدرها وذراعيها وشعرها في غير تناسق أو ذوق » .

ثم تابعت الكاتبة تقول : « وهذا كله يرجع في رأيي إلى أن الفتاة الجامعية عندنا لا تأخذ الدراسة الجامعية مأخذ الجد ، فهي تضع فوقها زينتها وأناقتها ، والمفروض أن يكون العكس هو الصحيح ، في وقت نالت فيه ثقافة المرأة أعلى تقدير ! . . ليس معنى هذا أنني أطالب الفتاة الجامعية بإهمال ملابسها وزينتها ، إنني أطالب بالاهتمام أولاً بدروسها ، ثم بتخفيف ماكياج وجهها ، إن لم يكن مراعاة لحرمة الجامعة ، فعلى الأقل مراعاة لبشرتها التي يفسدها كثرة الماكياج في سن تكون نضارة الوجه فيها أجمل بكثير من الماكياج المصطنع . . ثم بعد ذلك أطالبها بالحد من استعمال الحلي ، وبارتداء الملابس البسيطة التي تناسب الفتاة الجامعية ، وأن تراعي في اختيارها لهذه الأزياء الألوان الهادئة التي لا تثير القيل والقال بين زملائها الطلبة » .

« إنني أطالب الفتاة الجامعية باتباع هذا ، وأطالب أولياء أمورها بضرورة الإشراف التام على ثياب بناتهم ، فالفتاة في العهد الجديد لم يعد هدفها الأول والأخير في الحياة جلب الأنظار إليها ، إنها اليوم يجب أن تُصقل بالثقافة والعلم والذوق السليم ، فلم يعد أقصى ما تصبو إليه هو مكتب سكرتيرة تجلس عليه لترد على تليفونات المدير ، وإنما المجال قد فتح أمامها وجلست إلى مكتب الوزارة » . اهـ .

هذا ما قالته الكاتبة ، وهي تعتب على بنات جنسها وتنعي عليهم

هذا التصرف المعيب . . وقد أوردنا هذه الآراء لكاتبتين من مجتمعين مختلفين ، لكي لا يقول قائل إن الرجال قد ظلموا النساء وأبعدوهن عن ساحات العمل ، فهذه الآراء التي وردت كلها واضحة لا يختلف عليها وعلى صدقها اثنان من العقلاء . . فنحن نشاهد يومياً هذه المناظر والأحداث التي نقلتها لنا هذه الصحفية وغيرها ، وكم يعاني الشباب اليوم من جرّاء التخلي عن الأخلاق والحشمة . . وقلنا سابقاً إن الإسلام دين وقاية قبل أن يكون دين علاج ، لذلك ، وردعاً لما قد نندم عليه فيما بعد ، أتى القرآن الكريم فحرَّم التبرج والزينة . ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] (١) .

ووضع الحدود والقيود والسدود أمام الغريزة الجنسية لكي يطفىء من جذوتها ، ويخفف من حدتها ، ويهذبها تهذيباً جديراً بالإنسان وكرامته ، وتناول القرآن ملابس المرأة مفصلاً لحدودها ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] (٢) .

ثم يأمر القرآن بغض البصر ، وحفظ الفرج والعفاف ، وعدم التخلي عن حجابهن الشرعي ، وبالتالي عدم التخلي عن الأخلاق

---

(١) « ولا تبرجن » : لا تبدين الزينة الواجب سترها . « الجاهلية الأولى » : ما كان قبل الإسلام من الجهالات .

(٢) « يدنين عليهن » : يرخين ويسدلن عليهن . « جلابيبهن » : ما يستترن به كالملاءة .

التي تحفظ عليهن حياتهن الكريمة الطيبة . . ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] (١) .

حتى ولو كانت المرأة عجوزاً لا رغبة لها ولا رغبة فيها . ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ [النور : ٦٠] (٢) .

ويهتم الإسلام بهذه القضية فيحدد السن التي تبدأ بها المرأة في الاحتشام ، عندما رأى الرسول ﷺ أسماء عند السيدة عائشة رضي الله عنها فقال لها : « **يا أسماء ! إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا وهذين** » وأشار إلى وجهه وكفيه(٣) .

ولو تساءلنا : ما الغرض من كل هذا ؟ ولم كل هذا الحرص والتأكيد على الحجاب والحشمة ؟! إنه بالتأكيد واضح جلّي الهدف من وراء كل هذا . . فالهدف هو دفع الحضارة إلى الأمام ، ومنعها

---

(١) « زينتهن » : مواضع زينتهن من الجسد . « ما ظهر منها » : الوجه والكفين والقدمين . « وليضربن » : وليلقين ويُسْدِلْن . « بخمرهن » : أغطية رؤوسهن . « على جيوبهن » : على مواضعها ( صدورهن وما حولها ) . « لبعولتهن » : لأزواجهن .

(٢) « والقواعد من النساء » : العجائز اللاتي قَعَدْنَ عن الحيض . « متبرجات بزينة » : مظهرات للزينة الخفية .

(٣) رواه أبو داود (٤١٠٤) .

من الانتكاس لأسباب خُلقية من أسباب الفسق والفجور والزنى .

هذه الأمور التي تؤدي إلى الانتكاس ، وهبوط المجتمع إلى الهاوية ، وهذا ما سنبحثه في الصفحات القادمة .

قال الدكتور عبد الكريم اليافي في كتابه : دراسات اجتماعية ونفسية (ص١٧٤) : وخلاصة القول : إن الأزياء حادث اجتماعي يقوم على التقليد ، باعثه الاستطراف ، والميل إلى الجِدَّة من جهة ، وحب التميز من جهة أخرى .

ووجود الأزياء مقرون بوجود الطبقات في المجتمع ، فهي حادث طفيلي يعيش على هامش حياة الطبقات الغنية . ولها وظائف متعددة ، ولكن أهمها الوظيفة الاقتصادية ، وهذه الوظيفة تقوم بتنظيم التبذير والإسراف في المجتمع .

وهي سمةٌ سطحية ، وعلامة خارجية للمدنيات الزاخرة ، التي تقذف حتى آثارها التافهة ، فتتجاوز إلى البلاد الأخرى .

وإذا أمكن تشبيه المدنيات الكبيرة بالبحر البعيد الأغوار ، المصطفق الأمواج ؛ كانت الأزياء في تلك المدنيات بمثابة الزبد الطافي على وجه البحر ، ولكن هذا الزبد الفارغ قد يترامى ، ويذهب بعيداً ؛ حتى يبلغ مناطق أخرى ، فيصيبها رشاشٌ منه ، وهي في مندوحة عنه .

# الزنـى

ووصلنا الآن إلى إحدى منهكات الحضارة ، والعوامل التي تقوم بهدم كل مكسب حضاري ، فيما لو تفشى هذا الزنى ، وتخلّى الناس عن أخلاقهم ، وكثر الأولاد الذين لا يعرف لهم أب شرعي .

إن فساد الأخلاق يؤدي بالمجتمع إلى الهاوية والانحطاط . . لهذا كان الإسلام يبدأ من الجزئيات ، ليبني عليها قوانين عامة شاملة ، فبدأ من العين التي ترى كل شيء ، فأمر بتهذيب النظر . ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور : ٣٠] .

وأحد إعجازات القرآن اللغوية تظهر في كيفية دعوته إلى نبذ الزنى فيقول : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

[الإسراء : ٣٢] .

فلم يقل لا ترتكبوا ، بل نهى عن كل فعل يؤدي للزنى ، عن كل ما قارب الزنى ، فالعين تزني ، والأذن تزني ، وكل جارحة من جوارح الإنسان يمكنها أن تزني إن لم تهذب ضمن إطار أخلاقي قويم . . فالتبرج والسفور ، والنظر المباح السافر ، والحفلات الخلاعية الماجنة وشواطئ البحار ، وما يجري من عروض ومظاهر يدّعون فيها الحضارة ، وكل ما شابه ذلك ، كل هذا أنواع من الزنى الأصغر ، الذي سيؤدي إلى الزنى الأكبر ، وهو الانحلال والتفلّت

من أبسط قواعد الأخلاق .

والإسلام حين ينهى عن الزنى ، لا ينهى عن الفعل بحد ذاته فحسب ، بل عن كل ما يمكن أن يؤدي إليه ، لأنه من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه .

والإسلام حين ينهى عن الزنى ، لا ينهى عنه إلا لعلمه بما سينجم عن هذا الأمر من مضار ومصائب يجنيها الناس . . ويتحمل تبعتها المجتمع . . فللزنى آثار نفسية لا تخفى على أيّ مطّلع أو عالم ، من تحطيم للحواجز الأخلاقية ، وما يتبع ذلك من تفكيك للروابط الأسرية ، وانتشار للعواطف الكاذبة . . ومن انشغال بالشهوات واللذات ، ونسيان شيء اسمه حضارة أو مجتمع أو أخلاق . . هذا على الصعيد النفسي .

أما على الصعيد المادي فكثيرة هي الأمراض التي تنجم عن هذه الممارسات مثل الزهري والسيلان . . وكثيرون هم من أعلام الفكر والفلسفة من قضوا نتيجة هذه الأمراض . . فالشاعر الفرنسي باودلييه ، وملك بريطانيا هنري الثامن ، والموسيقار العالمي بيتهوفن كلهم أصيبوا بهذا المرض . . وما أبلغ ما قاله الفيلسوف شوبنهاور عن هذا المرض :

« إن أثر مرض الزهري هو أكثر مما يبدو للوهلة الأولى ، فالتأثير ليس عضوياً فقط ، بل يصيب الكيان الأخلاقي للفرد والمجتمع ، وبهذا فإن مثل هذا التطور يمتد ليشمل كل العلاقات الاجتماعية » .

لهذا كله ، ودرءاً لهذه المصائب أن تقع ، كانت عقوبة الزنى رادعة في الإسلام ، تجعل المرء يفكر ألف مرة قبل أن يغرق في بحر شهوته . . ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٢] .

هذا في حال أن من زنى ليس متزوجاً . . أما إن كان محصناً ، فعقوبته الرجم حتى الموت ، ويا لها من عقوبة . . « **لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** »[١] رواه البخاري ومسلم ، فالثيب الزاني هو المتزوج ، وحكمه الرجم حتى الموت .

ومهما كان المتقوّلون على الإسلام من قساوته وعدم رحمته ، فإن كلامهم لا يؤخذ به ؛ لأنه حتى هذه العقوبات لا تنفذ إلا عندما يصح عند الحاكم القناعة التامة بالجرم المرتكب مع وجود الشهود ، أو الاعتراف . والمجرم عند اعترافه لا يعقل أن يترك حراً في المجتمع يعيث فيه فساداً ، فهذا غير مألوف في أي نظام فكيف في الإسلام ؟! ومع هذا عند تنفيذ الرجم لا ترجم المرأة أو الرجل والراجم يشمت بهما ، بل يجب أن يعرف من ينفذ العقوبة أنه ينفذ حداً من حدود الله ، فينفذه وكله أدب مع الله عز وجل وحتى مع

---

(١) سبق تخريجه .

المرجوم . . ففي عهد الرسول ﷺ ، نُفذ الحد بامرأة زانية ، وبينما المسلمون يرجمونها إذ أصاب خالد بن الوليد شيئاً من دمها ، فلعنها ، فنهاه الرسول ﷺ عن هذا وقال له : « **والله لقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لكفتهم** »[١] .

والإسلام كما قلنا دائماً يتبع قاعدة الوقاية خير من العلاج ، فيمنع كل أسباب الوقوع في المحظور ، ولكن عندما يرتكب الإنسان جريمة ما لا بد من أن تناله العقوبة ليرتدع هو وغيره .

وقد أورد الشيخ السيد سابق في كتابه الضخم « فقه السنة » خطة جازمة للخلاص من هذه الموبقات ، لا بد من ذكرها ، وذلك باتخاذ الخطوات التالية :

١ ـ نشر الوعي الديني ، وتبصير الناس بخطورة الاندفاع في هذا التيار الشديد .

٢ ـ المطالبة بسن قانون يحمي الأخلاق والآداب ، ومعاقبة من يخرج عليه بشدة وحزم .

٣ ـ منع الصحف وجميع أدوات الإعلام من نشر الصور العارية ، ووضع رقابة على مصممي الأزياء .

٤ ـ منع مسابقات الجمال والرقص الفاجر ، وتحقير كل

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٦) وأبو داود (٤٤٤٠) والترمذي (١٤٣٥) وابن ماجه (٢٥٥٥) .

ما يتصل بهذا الأمر .

٥ ـ اختيار ملابس مناسبة أشبه بملابس الراهبات ، وتكليف من يشتغل بعمل رسمي بارتدائها .

٦ ـ يبدأ كل فرد بنفسه ، ثم يدعو غيره .

٧ ـ العمل على شغل أوقات الفراغ حتى لا يبقى متسع من الوقت لمثل هذا العبث .

٨ ـ الإشادة بالفضيلة والحشمة والصيانة والتستر .

٩ ـ اعتبار الزمن جزءاً من العلاج ، إذ إنها تحتاج إلى وقت طويل[١] .

ولكن قد يحلو لبعض المتفلسفين أن يسايروا التيار ، ويمشوا مع الركب فيقولون : ولكن إن اعتاد الناس على منظر النساء السافرات العاريات سوف يبطل أمر الشهوة والغريزة وسيصبح الأمر اعتيادياً !! وكأن هذا الفيلسوف قد نسي أن الجائع لا يشبع إن وضعت أمامه مائدة عامرة بأصناف شتى من أطيب ألوان الطعام ، فإنه لا يشبع ما لم يأكل من هذا الطعام كله .

والأمر نفسه ينطبق على الغريزة الجنسية ، فلن تشبع الغريزة حتى تروي ظمأها وغليلها من تلك الأصناف الشتى التي تمر أمامه من أولئك الكاسيات العاريات ، أوَليس هو بشر ذو شعور وإحساس ؟!!

---

(١) السيد سابق ـ فقه السنة ـ مجلد ٢/ ٢١٩ .

وبالتالي إذا تبع الإنسان شعوره وإحساسه ، فنظرية ذاك الفيلسوف سيكتب لها الإخفاق ، وعندها سوف نصل إلى ما وصلت إليه مجتمعات أوربة وأمريكا من انحلال أخلاقي ، وتفككٍ في الروابط الأسرية .

وذات مرة التقيت بأحد الداعين إلى الاختلاط ، فقال : لو وضعنا الولد بجانب البنت منذ الصغر ، فإنه سيعتاد على رؤيتها ، ولا ينظر إليها نظرة جنسية . فقلت له : إنك متزوج منذ أكثر من عشرين عاماً ، فهل تكره زوجتك بعد اتصالك بها ، أم تشتاق لها بعد ساعات قليلة ؟! وبُهِتَ من كلامي ، وكأنك ألقمته حجراً .

وليست غريبة عنّا تلك الأمراض التي صدَّروها لنا منذ القديم وحتى الآن . . ولكن ما السبب ؟! . .

السبب هو تلك الإباحات والممارسات التي هتكت الأعراض ومزقت الحجب . . وهذه الممارسات لم تقتصر على الزنى فقط ، بل تعدتها إلى أمور ينفر منها الإنسان السوي أكثر وأكثر ، وهو اللواط وشرب المخدرات و ، و . . وسأتكلم عن اللواط مفصلاً فيما بعد .

واليوم نسمع نغمة جديدة ، يدعو أصحابها إلى التطور ومسايرة الحضارة وعدم الوقوف في وجه التيار . . تيار التقدم والتطور !!

يا هذا . . هل التطور أن تسبح دائماً مع التيار ، سواء كان للخير أو للشر ، أتراك نسيت وصية رسول الله ﷺ : « **لا تكن إمَّعة ، تقول**

**إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت »**[١] .

يا هذا . . نحن لا نمنع أن نواكب التطور ، حتى يصل إلى مداه ، ولكننا نخشى أن يفسر التطور على حساب الدين والأخلاق والآداب . . فإن الدين ليس كباقي النظم التي وضعها الإنسان ، وجعل منها قواعد وأسساً يسير عليها الناس في تلك البلاد .

إن الدين عندنا ، وما يتبعه من تعاليم خلقية وأدبية ، إنما هو من وحي الله ، شرَّعه لنا ، وللناس كافة ، في كل عصر ، وفي كل زمان ومكان . . فإذا كان التطور جائزاً في أمور الدنيا وشؤون الحياة ، فليس ذلك مما يجوز في دين الله .

وأقول لأولئك الذين يصدقون فوراً ما يصدَّر إلينا من الغرب والشرق ، عن حركات التحرر ، والمطالبة بمساواة المرأة بالرجل ، تحرير المرأة وفكها من إسارها و ، و . . . يا هؤلاء انظروا بعين الحق إلى دعاة التحرر ، من هم ؟ وكيف يعيشون ؟ وسوف تهتدون إلى الحق . . ولكن أسرعوا قبل أن تضيع أنسابنا . . ويضيع شرفنا . . ونصبح كتلك المجتمعات التي تدَّعي الحرية ، وتفتقد حياة مطمئنة هادئة ، بعيداً عن مستنقعات الانحدار الأخلاقي . . والسلامة كل السلامة هي في ديننا . . في تاريخنا . . في أخلاقنا .

ولنتعرف على أخلاق الغرب من خلال تجربة قام بها عالم

---

(١) انظره في مجمع الزوائد (١/ ١٨٠) .

الاجتماع فابس من جامعة الزارلان ، فقام لمدة ١٤ يوماً حيث أعلن عن هاتف نجدة للاتصال لكل سيدة تتعرض للاغتصاب ، وكانت النتيجة أن الهاتف لم يتوقف عن الرنين خلال ١٤ يوماً ، فكانت أعمار الـ ١٠٠ سيدة اللواتي اتصلن تتراوح بين ١٠ و٧١ سنة ، والكثير منهن يبكين على الهاتف لأنها كانت تمثل تجربة مروعة للمصابة[١] .

هذا نموذج علمي حقيقي عن الأخلاق التي أصبحت سائدة هناك . . فبالله عليكم كيف تجدون أخلاق الإسلام ؟! ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة : ١٤] .

## اللواط ، والأيدز

هذا الموضوع كان يجب أن أبحثه مع الأخلاق ، ولكن لصلته الوثيقة بالزنى ، ولشبه الأمراض والآثار التي تنجم عن كليهما ، قررت أن أبحثه مع الزنى ، لأصل إلى رابطة بينهما ، ثم إلى نتيجة ستفرض نفسها .

وقبل أن أبدأ البحث أقول : على الرغم من كل ما نرى وما نسمع ، فأمتنا الإسلامية ما زالت بخير بالنسبة للآخرين ، لأنه ما زال عندنا بقايا حضارة بناها أجدادنا ، ونحن نعيش على أطلالها ، فالأخلاق على الرغم من كل التفلّت الذي حصل في مجتمعاتنا ،

---

(١) الدكتور خالص جلبي ـ الأيدز الطاعون الجديد ـ الطبعة الأولى ١٩٨٧ صفحة ٨٣ .

ورغم كل التحرر ـ كما يسمونه ـ الذي أصبح عندنا ، ما زال للأخلاق عندنا دورها الرائد . . ولم نصل بعد للمرحلة التي وصلت إليها مجتمعات التقدم والمدنية في الغرب والشرق .

إن اللواط قديم قدم التاريخ الذي رواه لنا القرآن الكريم . . واللواط هو أن يمارس الذكر الجنس مع ذكر مثله ، وأول من نُسب إليه هذا الفعل ، والذي استمد منهم اسم هذا الفعل ، هم قوم لوط عليه السلام . ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٠ ـ ٨١] .

فوضح لنا القرآن أنهم أول من مارسوا هذه الممارسات الشاذة ، على الرغم من كل الجهود التي بذلها نبيهم لوط عليه السلام ، في محاولة منه لحملهم على العودة إلى الشيء الطبيعي ، فكان يعرض عليهم أن يتزوجوا النساء ، ويشرح لهم سنن الله ، ولكن لم يكونوا مهتدين . . فنالهم من الله العقوبة العادلة . ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٢ ـ ٨٣] (١) .

واليوم إذ أصبح للّوطيين جمعيات ومعاهد وأسس خاصة بهم ، يتجدد الماضي ، ويعيد التاريخ نفسه . . ولكن العقوبة اليوم ليست

---

(١) « سجيل » : طين طُبِخ بالنار كالفخار . « منضود » : مُتتابع ، أو مجموع مُعَدّ للعذاب . « مسوّمة » : مُعْلَمة للعذاب .

حجارة من سجيل . . وإنما هي فيروس صغير . . يدخل الجسم فينهكه ويهلكه . . وهذا شيء طبيعي بسبب مخالفة التشريع الإلهي ، والأوامر النبوية . . فقد قال ﷺ : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** »[١] رواه الخمسة إلا النسائي .

وسبب القتل أنه ليس من فرق بين حالهم وحال الزنى من ناحية الشهوة وبلوغ الذروة والنشوة ، ومنها قوله ﷺ : « **إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان** »[٢] .

ورغم هذا أصبح لهم اليوم جمعيات ، وتمثيل سياسي ، مع أنهم كانوا سابقاً يصنفون مع الزناة ويعاقبون مثل عقوبتهم .

وجاء في كتاب (الأيدز المرض المريع) لأربعة مؤلفين[٣] استعراض تاريخي لعقوبة الزنى ، ثم اللواط ، حتى يومنا هذا . . ويوضحه الدكتور خالص جلبي في كتابه المذكور : « ففي كتاب موسى جاءت عقوبة الموت للاثنين ، وكذلك في العهد الجديد كما في رسالة بولس إلى أهل روما ، وفي عهد الجرمان القديم يلقى في مستنقع من الغائط ليغرق فيه ، وفي قوانين القبائل الجرمانية الشمالية ـ الفرير ـ استئصال الأعضاء التناسلية الظاهرة ، وفي العصور

---

(١) رواه أبو داود (٤٤٦٢) والترمذي (١٤٥٦) وابن ماجه (٢٥٦١) .

(٢) انظره في تلخيص الحبير (٤/ ٥٥) وميزان الاعتدال (٧٨٥١) ولسان الميزان (٥/ ٨٦٦).

(٣) المؤلفون هم : يوديث ريميشوفسكي ـ هانيريش فوكاليك ـ أبرهارد فرانتس ـ إدوارد ريميشوفسكي ، مطبعة روميخ ١٩٨٤ .

المتوسطة كانت العقوبة بالحرق . . وفي عام ١٨٧١/ ١٥ أيار ، وضع البرلمان الألماني قانوناً يقضي بتخفيف العقوبة إلى السجن ، أما في العصر النازي فتمت ملاحقة اللوطيين بشدة ، وفي ٧ أيار ١٩٦٩ وضع البرلمان الألماني الاتحادي قانوناً يقضي بإبطال القوانين السابقة ويرفع أي عقوبة عن اللوطيين ، وفي عام ١٩٧٣ في أمريكا في مؤتمر مهم لعلماء النفس اعتبر عمل قوم لوط عملاً عادياً ، وشطب من قائمة الأمراض العقلية ، بعد هذا بدأ اللوطيون ينظمون أنفسهم في مجموعات لممارسة الضغط السياسي ، ولم يعد عيباً أن ترى في البرلمان أعضاء معروفين بشذوذهم الجنسي ، كما هو الحال في أحد عناصر الحزب المحفز الجديد في ألمانية الغربية ؟!!»[١] .

وهكذا انتشرت اللواطة ، وأصبح لها أنصارها في كل مكان ، حتى إن عدد اللوطيين الشواذ في مثل مدينة سان فرانسيسكو بلغ من تعداد السكان حوالي ٧٠٪ بحيث يمكن القول أنهم نكسوا على رؤوسهم .

وكانت ثمرة هذا الشذوذ ، وهذه الممارسات مرضاً خطيراً جديداً ، طاعوناً جديداً ، أصبح يعزف لحن الموت ، والناس يهرعون من أمامه ، ولكن بعد ماذا ؟ بعد أن تفشى المرض وقارب أن يصبح وباءً . . ذاك هو الأيدز . . بعد أن أصبح عدد المصابين به حتى عام ١٩٨٦ مليونين و٥٠٠ ألف مصاب . . ويتوقع العلماء أن

---

(١) الدكتور خالص جلبي ـ الأيدز الطاعون الجديد ـ طبعة ١٩٨٧ صفحة ١٦٧ .

يصل العدد مع نهاية القرن الحالي إلى ٣٠ ـ ٥٠ مليون مصاب في العالم . . لأنه كما تبين للعلماء أن الإصابات لا تسير بشكل ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ وإنما بشكل آخر مريع إحصائياً وهو : ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٦ ـ ١٢ . . . ثم يضاعف العدد نفسه كل ثمانية أشهر .

والولايات المتحدة الأمريكية كان لها نصيب كبير من هذا المرض ، فحتى عام ١٩٨٦ كان عدد المصابين ١٦ ألف إصابة ، و٢٥٪ ـ ٣٤٪ منهم كانت إصاباتهم قاتلة ، و٢٥٪ منهم كانت إصاباتهم متقدمة(١) .

وكان أكثر المصابين لوطيين وحشاشين على هامش المجتمع ، وممن عثر به الحظ أثناء نقل الدم إليه من إنسان غير طاهر ؛ لأنه كما جاء في الحديث : « **ونافخ الكير إما أن يؤذيك بريحه أو يحرق ثيابك** »(٢) .

وأما القوادون والمخنثون والزناة فهم أيضاً مع هذا الفوج . ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ [ص : ٥٩ ـ ٦١] (٣) .

---

(١) المرجع السابق نفسه صفحة ٢٠ .

(٢) رواه أبو داود (٤٨٢٩) .

(٣) « هذا فوج » : جمع كثيف من أتباعكم الضالين . « مقتحم معكم » : داخل معكم النار قَهْراً عنه . « لا مرحباً بكم » : لا رحبت بهم النار ، ولا اتسعت . =

واستشرت الإصابة واستفحلت . . وكان نسب المصابين كما يلي :

٧٩٪ لوطيين .

١٧٪ مدمني مخدرات .

٨٪ من خلال نقل الدم ومشتقاته .

٥٪ من المهاجرين من جزر هاييتي .

بالله عليكم انظروا في هؤلاء ، هم بين شاذ جنسي ، وبين مدمن مخدرات ، أو من كان في جزر الفسق والفجور . . وما ظلم منهم إلا من نقل له الدم المصاب خطأً ، فابْتُلِي بهذا المرض .

وكم من المصابين يندبون حظهم ، ولكن بعد فوات الأوان . . الممثل الأمريكي الشهير روك هدسون قضى نحبه عام ١٩٨٧ من جراء هذا المرض ، ولا ندري كيف أصيب ، ولكنَّ شخصاً مثله حياته في الملاهي والحانات لا يشك بطريقة إصابته . . ترك ٢٠ مليون دولار في سبيل خدمة الأبحاث التي تهدف لكشف المرض وعلاجه .

ربما كان هذا تكفيراً عما أحس به . . الله أعلم بإحساسه يوم سمع وعلم بإصابته بالمرض . . ومن رأى صوره قبل أشهر من إصابته

---

= « صالو النار »: داخلوها، أو مقاسو حرها. « فبئس القرار »: فبئس المقرُّ للجميع جهنم.

لا يعرفه وهو مصاب . . وهو الذي كان فاتن النساء ، فانقلب إلى عجوز هرم مجعد الوجه لا يُنظر له . ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] .

فالآن أبصر الناس هناك خطورة الدعارة والممارسات السرية ، فعادوا إلى رشدهم ، وبدؤوا بتوجيه صرخات الاستغاثة ، والمطالبة بالالتزام بالأخلاق ، بعد أن كانوا غارقين في الشهوات . . واليوم أفاقوا ليقرؤوا قول الشاعر جوته ، وكأنهم يسمعونه لأول مرة . . حيث يقول :

أما ما هو شنيع حقاً فذلك هو القادم عن طريق الشبق . .

السهر تحت الورد والأفاعي ملأت لك الدرب . .

مع لحظات المتعة الدافئة والخليلة ذات الحب . .

تقرع الضمير الغارق معلنة همسات الخطر كامنة في الغرب . .

فهذا هو الغرب ، وهذه هي أخلاقنا ، فمن ينكر علينا أخلاقنا والتزامنا بعد اليوم ، بعد أن أصبح الخراب في طريقه إلى الغرب والشرق ليدمرهم ، باستخفافهم بآيات الله وسننه في الكون ؟!

لا أريد أن أطيل . . فهذا المرض يعد جديداً نسبياً . . وغداً ستتكشف الأمور . . وتظهر الحقيقة . . ويعرف المنكرون ما هو دين الله .

* * *